نور شوقي

عبق كردياً يتشمس

قصص قصيرة

من منشورات مركز عامودة للثقافة الكردية (32)

www.amude.com
info@amude.com

11/2003

نور شوقي

عبق كردياً يتشمس

قصص قصيرة

الإهداء

إلى أفراد عائلتي المشتتة ودايلان
والأستاذ نصر الدين إبراهيم
والشيخ توفيق الحسيني

نور

المقدمة

أديب ناشئ يقدّم إلى القراء باكورة أعماله في مجموعة قصصية، ولكنه ليس غرّاً، ولا يفتقر إلى الحنكة والتجربة، فقد أعفته الموهبة المبكرة من الجهد المتواصل، والكدح الدؤوب، وتجشّم عناء السهر بين الصفحات والقراءات المملّة. والمعركة الكتابية التي يؤجج القاصّ نور شوقي سعيرها موسومة بالصدق، والثأر، والانفعال، وله في كل ما يكتب انطلاقة من منطقه الخاص، ورؤيته المؤطَّرة بحدود من الخصوصية المفرطة. إنه يتمرَّد على أغلال الأعراف والتقاليد التي صنعها الأقوياء، وكبَّلوا بها الضعفاء ليسهل عليهم التصرُّف فيهم، ويهون العبث بمصيرهم دون أن ينالهم من جرّاء ذلك تقريع أو ملام. وهو يتناول مجتمعه بالنقد بالطريقة التي تتعامل بها الروائية الإنكليزية (أغاثا كريستي) مع شخصيات رواياتها. ويتعرّض للنقائص والعيوب والأوبئة التي تستشري وتفتك بمن يحيطون بهم، بالأساليب الإيمائية وبالتلميح دون الصريح، معتمداً على فطنة القارئ، فهو بحسن الظن بقرّائه... يعرّي أولئك الرافلين في مآزر الزيف والتصنُّع والادِّعاء الأجوف والرياء الواضح. أولئك الذين آمنوا بشعار (الغاية تبرر الوسيلة).

يكثر القاصّ من ذكر الفاقة والحرمان وشظف العيش وضنك الحياة إلى حدود الفاجعة، ويثير هذه الأزمة الموجعة في قصة (الدمعة الأخيرة)، حين يقضي الطفل الصغير نحبه في البرد القارس منتظراً قدوم إحدى الحافلات المحتشدة بالركاب ليبيع إليهم بعض ما يحمل من أمتعة بخسة الثمن، ويربح قروشاً طفيفة يقدِّمها إلى أسرته المنكوبة بكارثة الفقر والإملاق والجوع.

نور شوقي، الذي مازال في مقتبل أيامه، استطاع أن يبدع هذه الكتابات الجادّة المتوغلة في الجدية التي تهزُّ المشاعر هزّاً عنيفاً، ودون هوادة، حريٌّ به أن يكون له ذات يوم شأن في عالم الأدب، ولا سيما مملكة القصة، إذ يجيد استخدام البعدين: البعد الرمزي، والبعد الواقعي، استخداماً رائعاً في معالجة المفارقات الاجتماعية، رافضاً أن يعوم الإنسان في أنهار الشقاء والقهر، أو أن يضيع في ملاحم البؤس ويجترّ أحزانه في إذعان وخنوع. كذلك يأبى أن يظلّ يراعه هامداً أو خامداً يرين عليه الصمت... وقد يؤخَذ عليه أحياناً ركونه إلى الإيجاز حين يتكئ على الرمزية المطلقة في سرد حادثة، ولكنه يبرر صنيعه هذا بأن الرمزية أساس من أسس الاختزال والإيجاز.

كتابات القاصّ نور شوقي، أولاً وأخيراً، مرآة ناصعة لملامح مأساة قد عاشها بكلِّ مرارتها وطغيانها، أو حضرها حضور من يرى ويسمع ويدرك، فاعتلجت بها جوانحه، وفاضت على قلمه.

الشيخ توفيق الحسيني

الدمعة الأخيرة

رياح الليل تئن كجريح ينزف في شتاءٍ نهمٍ جائع التهم جمال الربيع، وابتسامة الصيف، ولمسة حزن الخريف الخائف، وليل حالك بسواد ظمآن يرتشف قليلاً قليلاً أضواء المدينة الباهرة بفانتازيا ساحره في ذلك الشارع الطويل غير المرئي من لجة الغبوق. وضع دلدار كرسيه الصغير المدعم بأربطة القنب ومطاط سروال والدته المنتظرة مع أخوته في حي شعبي ناءٍ تابع لتلك المدينة الذائعة الصيت بجمالها والتهامها لبني البشر.

هاهو ذا جالس أمام بضاعته، علب (علكه)، عدد قليل من مغلفات الموالح بالإضافة إلى بعض علب الدخان الأجنبي. وضعها على صفحة من صحف الجريدة اليومية، وقد انزوى خلف الحائط الفاصل بين الشارع الطويل وكراج النقل السياحي. الساعة تقارب الحادية عشره والربع لم يبق إلا ساعة على تحرك البولمانات من الكراج أو قدوم بعضها في نفس الموعد من المحافظات لتدب الحياة في الكراج والشارع مدة نصف ساعة. عندئذ تلتحف الريح بحرارة زفير المسافرين والقادمين علَّ دلدار يبيع شيئاً من بضاعته لتأمين طعام الغداء لأمه الأرملة وأخوته الصغار. هو أيضاً صغير، لكنه أكبرهم فقد أكمل الثانية عشرة في الخريف الفائت. وجل قلبه الصغير من صفير الريح اللاذعة كنباح كلبٍ مسعور محمر العينين مكشرً عن أنيابه يبحث عن فريسة لينخر عظامها، لكن إدراكه لمسؤوليته تجاه عائلته كانت أعظم من وجله. يداه الصغيرتان مازالتا تبحثان عن الدفء، فتارةً تدخل الجيب الممزق وتارةً تحت إبطه وتارةً تحت مقعده الحمي وتارةً تلعب عنوة وبطلاقة بجدائل الريح وقد لكزته، يكون الإحساس عندئذ قد انعدم في أطرافه النيئة، ويكون عقله قد نأى عن رأسه الصغير يجوب مقتحماً المسافات الطويلة لتلك المباني بإعجاب وحسرةٍ محاوراً ذاته.

- يا ترى كم مدفأة مشتعلة في هذه المباني ؟ وكم من الغرف مخصصة لأولادهم ؟ وكم حلمٍ جميل يتراءى لهم ؟.

تابع دلدار شروده ليصل لهندسة بيته الصغير والحقير المؤلف من غرفةٍ واحدة بباب مكسور مرقّع بفوارغ (تنك) السمنة ومغطى بأكياس النايلون وشباك صغير مسدود بالحجارة والطين لمنع دخول لسعات سياط الشتاء المؤلمة، أيضاً لمنع دخول بقايا بشائر القمر المحملة بالأحلام الوردية.

يسترسل محدثاً نفسه : يا ترى كم كذبة بيضاء كذبت والدتي حتى نام اخوتي يعصرون بطونهم على أمل الغد المنتظر.

فات بعيداً بعيداً مخترقا دائرة الزمن إلى والده معاتبا :

- لماذا ابتعدت بتلك السرعة ؟ هل القضية والمبدأ كانا قيدين لم تستطع التحرر منهما حتى ابتلعك المرض في تلك الزنزانة الرطبة فكتب علي أن أحمل دركك حتى يوم اللحد ؟. أين عدالة السماء في تفاوت درجات عباده في الأرض؟... لماذا ولدت لوالدين فقيرين؟ الأول أفنى شبابه حتى الموت من أجل سراب والثانية تندب حظها الأسود من القدر المسنون بجبينها لتبقى أرملة تحترق في اليوم مائة مرة لكي تدفئ أيتامها .

وسبح بحسرة في فضاء مدرسته التي تركها هذا العام بعد وفاة والده على الرغم من اجتهاده، وتفوقه كل عام. كان قد أصبح مثالاً للطالب المجد ذا دلال خاص لدى الإدارة والمعلمين على الرغم من أنهم لم يتركوه في محنته حين انقطع عن الدوام في أول السنة الدراسية، لكن ظروفه القاسية كانت أصعب من أن يتحمله أصدقاءه والمعلمون، فبقيت أحلامه وطموحاته محصورة في بوتقة الذكرى، خاصة رنين الجرس الذي كان له مكانة خاصة في نفسه، فقد كان عديم الصبر حتى يسمع رنة الجرس ليدخل الصف، ويرى المعلم اجتهاده وجديته في طلب العلم، ليحقق من خلال ذلك طموح والده في أن يصبح محامياً ذو شأن يقف بشموخ واثقا من نفسه في قاعة المحكمة، يدافع عن حقوق الفقراء والمظلومين من أبناء شعبه. كان ذلك الشعور ينتابه كل صباح وهو متجه إلى مدرسته، ووقوفه باستعداد في الاجتماع الصباحي، حتى أصبح كل ذلك حافزاً قوياً ليحقق حلمه.

سالت عبراته رغماً عنه وهو يراجع شريط الذكريات بأسى وعتاب. بأمل ومرح مسلوبين وحلم ممزق لغد غابت شمسه قبل أن تشرق. كفت عبراته عن السيلان عدا دمعة واحدة لم تنزل بانتظار رنين الجرس .

دبت الحياة في الكراج والشارع الطويل، وانجلى سواد الليل وغبوقه .الساعة تشير إلى السابعة صباحاً، ودلدار ما زال في غيبوبته مسافراً بعقله إلى الذكرى والطموح والحلم. بدأت الأصوات تتعالى من حوله.

- من هذا الصغير ؟ ابن من هو؟ وأسفاه عليه... أي قلب متحجر في صدر والديه، اتصلوا بالشرطة... والإسعاف...

كلما ازداد الناس ازدادت التساؤلات عن هويته الضائعة، لكن دلدار غير آبه بما يحدث حوله، فقد قطع تذكرة سفره الطويل لكنه لم يسافر بعد ... إنه بانتظار رنة الجرس، قاربت الساعة الثامنة إلا دقيقة واحدة. وصلت الشرطة وما زال دلدار في وضعيته جالساً على كرسيه الصغير، وقد أسند ظهره إلى الحائط وملامحه البريئة المزرقة توحي للناضر بابتسامة على شفتيه ودمعته الأخيرة بانتظار رنة الجرس.

دقت (بيغ بن) الثامنة تماماً ورنَّ جرس المدرسة. أسرعت الدمعة الأخيرة بالنزول ليغمض دلدار عينيه السوداوتين، ويكمل سفره الطويل على قطار القدر إلى والده .. إلى عالم لا يسرق منه الحلم، ولا تسلب فيه الإرادة الحية، حيث يعيش العباد سواسية.

عجل بسفره ليعيش طفولته دون حرمان .. دون كبت .. دون ضغط كأي طفل على وجه المعمورة وليتحمل الرب الأعلى مسؤولية عائلته الغارقة.

المحاكمة

كانت الشمس تزحف إلى المغيب مع ازدياد احمرار قرصها الناري ليسدل الليل ستاره الأسود على المدينة النائية الهادئة بكل ما فيها.

تشلّ حركة المدينة عادة بذهاب القرويين إلى قراهم بعد شرائهم حاجاتهم الضرورية، أو مراجعة طبيب، أو قضاء حاجة إدارية في إحدى دوائر المدينة.

شيخموس واحد ممن يتواجدون في أزمة التسوق الصباحي. له أربع محطات يتوقف فيها للتسوق: الفران عمو(عبو) ومطعم الفوال أبو محمود والخضري وبائع الخمر أبكار، وعند عودته يشتري علبتين من الدخان الأجنبي من أي دكان. بطبيعة الحال وقته محدود وموعده موقوت في كل محطة يمر بها، لكنه اليوم تأخر قليلا في النوم، مؤكد أنه أطال السهر مع حاشيته يخطط لشراء المزيد من الأراضي الزراعية من الجارة تركيا. في الفترة الأخيرة أراد التفاوض مع الحكومة العراقية لشراء بعض الأراضي، لكنه فوجئ بوجود مشاكل عليها خاصة على نهر دجلة، فأجّل التفاوض حتى إشعار آخر، لا سيما أنه يرفض أن يكون طرفا ثالثاً في النزاع على تلك الأراضي الخصبة.

مرَّ على الفران، أخذ رغيف خبزه، وعلى صاحب مطعم الفول أكل صحناً كبيراً من الفول السوداني، ومرَّ على الخضري، كان قد حضَّر له خيارتين وحبة (بندورة) وبعض الفواكه. أكمل تسوقه عند بائع الخمر، فأخذ زجاجتين على غير عادته، والجميع يسجلون ما أخذه ديناً حتى يقبض شيخموس فواتير حنطته البعلية في رأس السنة، أو قطنه الممتاز في شهر تموز ككل عام. عند عودته - كالعادة - مرَّ على أحد المحلات، أخذ علبتي دخان، واتَّجه إلى شقته بين أشجار الصفصاف والحور على ضفاف نهر الخابور، لكنه مرَّ على بائع الحبال أيضا فأخذ منه مقدار ثلاثة أمتار من حبال النايلون. وضع حاجاته في شقته وعاد إلى مركز المدينة. مرة أخرى مرَّ على المكتبة وسأل عن صدور مجلات تزين أغلفتها صورة حبيبته الممثلة المشهورة التي انتحرت قبل أيام، فأجاب صاحب المكتبة بالنفي، وعند عودته استوقف أحدهم ممن يريدون التحدث معه والاطمئنان على أحواله، خاصة العاطفية، فسأله عن أخبار حبيبته وعن سر شرائه للحبل (النايلون).فرد شيخموس بكل ثقة: - يقولون أنها انتحرت لأني لم أف بوعدي لها في مسألة الخطبة، أما عن الحبل فيوجد في مزرعتي سمك بري، إنه يزعج الجيران ويدخل في مزارعهم قصدا. فأطال حديثه بسؤال آخر :

- حرام عليك أن تربطه إنه لا يستحق الربط. أجاب شيخموس بإصرار:

- بل يجب ربطه لأنه سيزعج الجيران كما يفعل بغلي وجديي ذو الذقن الطويل وعنزتي المذيلة يجب أن أربطه كما فعلت بالبقية والآن أرجوك عندي موعد مهم سنلتقي قريباً. وأكمل مسيرته ظهرت عليه علامات التفكير والتعب فقطع الشارع وأتجه إلى شقته مر هذا اليوم عليه متعباً حزيناً لا أخبار من حبيبته المنتحرة كما أعلنت وسائل الأعلام.

وصل بيته وما زال نصف احمرار الشمس يشع في البعيدة قليلاً قليلاً تنزل لتضيء الجانب الأخر من هذا العالم. فتح شيخموس زجاجة الخمر وشربها كلها دفعة واحدة، وأشعل سيجارته، سحب منها نفساً طويلاً وهو ينظر إلى الحبل وكأنه قرر شيئاً. فتح الزجاجة الثانية شرب رشفتين ووضعها جانباً. قام فجأة وأخذ الحبل وربطه بغصن مرتفع كأنشوطة مشنقة. جلس وشرب رشفة ثانية من الزجاجة، وضحك ثانية بدأ يتكلم مخاطباً :

- الآن قد فرغت لك يجب أن نضع النقط على الحروف إلى متى ستلاحقني وتحرضني على فعل الشر.

- اسمك شيخموسو المجنون ماذا أفعل لك كل شيء تفعله تضعه في ذمتي نعم أنت مجنون.

- إذاً أنا مجنون، فليقلها كل العالم إلا أنت لأنك أنت من صنع هذه الشخصية فيّ. انظر إلى شكلي، حرضتني على أن أقلع كل أسناني وأحلق كل شعر رأسي وذقني وحواجبي حتى شعر يدي... أترى الحبل .. إنها محاكمتك يجب أن تعاقب حتى حبيبتي انتحرت بسببك. لو لم أسمع كلامك والتقيت بها لما انتحرت.

- طيب لو حاكمتني من سيؤنسك من سينبهك لكي تربط سراب حيواناتك فلا تزعج الجيران ؟.

- هذا لا يخصك لا سيما وأن الذنب لن يقع عليك بعد الآن. هاأنا أربطهما فإذا فكت وثاقها ليكسر الجيران أرجلها أو يكسر رقبة ولدهم الذي يغري حيواناتي بأكل المحصول، ليفعل فعلته بهم. الشيء المهم أن تحاكم اليوم. يكفي ما جرى حتى الآن بسبب أفكارك الجهنمية. ولن يكلفني ذلك شيئاً، فلا أهل لك ولا أهل لي ولن تدفن. ستأكلك الديدان في غضون يومين. انتهى النقاش، والآن لقد صدر عليك الحكم بالإعدام شنقاً. هيا إلى المشنقة.

- وهل تعرف كيف تربط عنقي جيداً ؟. ماذا لو انقطع الحبل كما حدث للشيخ سعيد ؟.

- خسئت! فأمثالك لا يمثلون بالشيخ سعيد. أظن أنك خائف، لا تخف. المسألة ليست صعبة. تعال وسترى.

- لست خائفاً من الموت بقدر ما أنا خائف من أن تفشل في شنقي. لماذا لا تريني كيف ستتم العملية ؟، وهذا مطلب مشروع للمحكوم عليه، وتعرف أنني لن أهرب منك.

- تعال.. هذه مسألة بسيطة.

حمل زجاجة الخمر وشرب منها رشفة ارتوى منها، وضع الحبل حول عنقه، ووضع (تنكة) فارغة تحت قدميه حتى شدَّ الحبل جيداً وهو يتحدث إلى نفسه.

- هكذا !. انظر، المسألة بسيطة، وهكذا سأسحب (التنكة) من تحت قدميك.

ركل (التنكة) بقدمه بعيداً. كانت الصيحة عالية ومدوية بالاختناق للعالم والإنسانية هزت أشجار الصفصاف والحور.

في ذلك السكون الموحش رحل شيخموس بعد محاكمة دامية مع نفسه. عزف الخابور سيمفونية الحياة والموت لروح شيخموس، وبإيقاعات أشجار الحور والصفصاف الرافضة لكل ما حدث.

ظلت ضحكته ترنُّ في السهول، يسمعها كل من أثقله الحزن، وأمضته الحياة عزاءً للقلوب البائسة، وسخرية من يد القدر العبثية التي ترسم مصائر البشر.

الحسرة

لوعة الاشتياق والحنين لوطنه (لقريته) .. لأهله .. لحبيبته باتت تفتت دواخله لهرسه. في لحظة تلاحم مع وجدانه قرر العودة لا سيما وأنه قد وصل إلى ما كان يبتغيه ووسيلة الاتصال انقطعت بينه وبين أهله لأسباب يجهلها، وقد مر على آخر رسالة وصلته سبع سنوات بطولها وعرضها. عاد دون سابق علم إلى أهله وكان ذلك تعمداً منه، لأنه خرج من قريته دون علم وحتى أنه لم يعلم أحداً عن وجهة سفره. لم يعرف عنه خبر إلا بعد استقراره في مكان عمله. لم ينتبه لمرور الأعوام على الرغم من بطئها، ولا حتى لزحف الشيب إلى رأسه. كان عناده القروي أقوى من ذلك بالإضافة إلى ذلك كان رفيق عمره (سمو) على اتصال مباشر معه يطمئنه عن أحوال القرية وأهله وحبيبته. كان ذلك مصدر تشجيع وحافز كبيرين لينال ما كان يصبو إليه بيسر. فامتدت الساعات لسنوات أثناء عودته حتى وصل مشارف قريته التي أخذت شكلاً آخر لم يكن يتصور أن القرية ستأخذ، حتى في أحلامه من خلال التفافه شمالاً ويميناً.

بدهشة ممزوجة بفرح خائف للتغيير الحاصل كأن نظره خطف خيال هدفه .. حلمه .. سبب غربته الطويلة. هل هي حبيبته حليمة ؟. أمعن فيها نظره بظمأ وهي تغتسل عند ضفة النهر القادم من تركيا. تقدم نحوها بثقة كاملة وعيناه تسترقان النظر إلى جمالها وبروز معالم صباها من خلال التصاق ثوبها الداخلي بجسمها.

لحظت الفتاة تقدم الرجل إليها بخجل قروي ساذج. لممت شتات استعلائها المبعثرة في تلك اللحظة، وفرّت مهرولة إلى القرية. لحق بها الحبيب المغترب وهو يتحرق شوقا وحنينا إلى الأيام الخوالي، عندما كان يلتقيان خلسة في زريبة الأغنام وتحت قية بيت التبن. في قرارة نفسه كان على يقين بأنها حليمة، ويؤكد ذلك هروبها الذي ظنه من شدة فرحها أو بسبب المفاجأة.

لم يقطع نظره عنها وهو يسرع بخطواته ليبلغها أنه عاد إلى الأبد، وما زال على عهده لها ووعده لوالدها الذي اشترط عليه أثناء خطبته لها أن يملك نصف ما يملكه ابن المختار، المنافس الوحيد لزواجه من حليمة. كانت تسرع وهو خلفها. دخلت أحد البيوت المبنية حديثا. تعجب لذلك !. لماذا لم تذهب إلى بيت والدها ؟.

ناداها بعد غياب كل تلك السنوات وبمخزون الحسرة والشوق والحنين القابع في زنزانة فؤاده بأيام وساعات تلك السنوات الطويلة...

- حليمة ه ه ه ه .

على إثر ندائه المدوي في أرجاء القرية خرج من ذلك البيت آخر إنسان تمنى أن يراه من بين كل أهالي القرية، إنه ابن المختار. بات يسائل نفسه من هول الصدمة:

- أين جبروته وأناقته ؟ أين حاشيته من شباب القرية المتطفلين المتخاذلين ؟ ما الذي أوصله إلى هذه الحالة التي يرثى لها وقد شاب شعره وذقنه قبل الأوان ؟ ولماذا دخلت حليمة داره ؟. بادره ابن المختار بالسؤال:

- نعم سيدي ماذا تريد ولماذا تنادي حليمة ؟.

الصدمة أخرسته وهو في هاجس التساؤل أحس بمسح كامل للمفردات في عقله تابع ابن المختار استفساره:

- هل أنت من أهل حليمة أو معارف أهلها ؟.

أفكاره في مد وجذر. أحس بأنه سيبكي. السبب كل ما جرى لكنه لملم نفسه متمالكا معتذرا بالأسلوب الحضاري على أنه أخطأ في معرفة البيت. اتجه إلى بيت أهله هائجاً تاركاً ابن المختار في حيرته ممتلئاً كبركان يغلي.

وصل إلى البيت وكانت الفاجعة. لا أحد في الدار وقد أصبح البيت مأوىً للغربان، ومرتعا للدابة والدبيب. تراكمت سنوات الغربة عليه. أحس عندئذ أنه خسر الكثير وبكى كثيرا على ماضيه الجميل، ونظرته للمستقبل في الغربة من خلال أحلامه ومرارة الواقع في آن واحد، وقد اصبح مستقبله في خبر كان لم يستفق من خلوته الوجدانية إلا بصوت كهل يناديه لاهثا.

- دل دار.. دل دار ... تعال يا ولدي . أنا سأجيب عن جميع التساؤلات التي تدور في عقلك ونفسك . تعال يا ولدي البكاء لن يفيدك شيئا بعد الآن.

من خلال صوته عرفه دل دار. إنه قريب والدته، وارتمى في حضن الكهل يفضي غليانه إلى البكاء، وفي ظل دار والده المهجور حكى له الكهل السيرة الحقيقية لمأساة أهله ومصير حبيبته بعد ذهابه. عندئذ اكتملت الحلقات المفقودة لكل ما حدث في عقل دل دار، وعرف أن سبب كل تلك المصائب هو رفيق عمره (سمو) الذي كان يراسله بلسان أهله وحبيبته، ويطمئنه كل الاطمئنان عن الأحوال في القرية. كل ذلك كان يفعله من أجل أن يطيل دل دار مكوثه في الغربة، فيتزوج ابن المختار بحليمة مقابل مائة دونم يعطيها ابن المختار لسمو لتفانيه في خدمته. وفعلا تزوج ابن المختار حليمة رغما عنها وبعد أن أكد لها سمو أن دل دار قد تزوج في الغربة.ابن المختار بعد كل العز الذي كان يتمتع به وزواجه بحليمة تبخر كل شيء وهو يعمل بأجرته اليومية في أرض هذا وذاك. أما عن سمو، فبعد أن استلم مقايضته من الأرض باعها، ولا يعلم أحد عنه شيئا لم يكف دل دار عن بكائه أثناء حديث الكهل، خاصة عندما علم بوفاة حليمة قبل سنة ووفاة والديه قبل اكثر من ثلاث سنوات، وعدم عودة اخوته إلى بيت والدهم. بعد زواج بعضهم والبعض الأخر يعمل في العاصمة. عندئذ أحس بشيب رأسه وتقدمه في السن. أحس بمرارة الأعوام التي مرت دون انتباه، وارتباطه بأوهام كتائه في صحراء يتراءى له السراب حقيقة. اتجه إلى قبر حليمة معاتباً: - واه يا حليمة ! وفيت بوعدي، لكنك خنتني كما خنت أهلي حسرة رؤيتي دفنت مع والديّ كما دفنت معك. ها قد أتيت ومعي أضعاف ما طلبه والدك من مال وأملاك. خاطبها بكل أحاسيسه ومشاعره المرهفة نحوها وهو يبكي يتلمس تراب قبرها علها تقوم للقياه أو حتى ترد عليه. فجأة دخل مسامعه صوتها:

- عم دل دار ! كل شئ انتهى.

التفت بذهول إلى الوراء وإذ بها نسخة من حليمة، كيف لا، وهي ابنتها التي لاقاها دل دار وهي تغتسل على ضفاف النهر. أراد أن يضمها إلى صدره لأنها الشيء الأخير المتبقي من حليمة، لكن كثيراً من الموانع النفسية حالت دون ذلك.

تقدمت الفتاة من قبر والدتها وعيناها ترصدان بكاء دل دار وملامحه الظامئة لرؤية حليمة من خلالها. جلست في الجهة المقابلة له وبكت معه. بكى الاثنان طويلا دون كلام لكن عيونهما قالت الكثير الكثير عن البعاد والحسرة والتمني بقدومها كأنها ملأت الفراغ المحدث في قلب دل دار بعد وفاة والدتها ولو للحظات.

انتهت اللحظات واتجهت الفتاة لبيتها ودل دار يترقبها يملي ناظريه من رؤية حليمة. التفتت إليه للمرة الأخيرة، وقالت بصوت متهدج :

- تأخرت كثيرا يا ليتك قدمت قبل أن أولد. ولا تظن أن حليمة نسيتك، وتابعت خطواتها باكية تتأمل غروب ذلك اليوم وما زال دل دار يفضي من غليانه وحسرته.

إضراب

بانقطاع التيار الكهربائي وارتفاع درجة الحرارة بشكل ملحوظ هذه السنة، زحف الضجر إلى غرف الدائرة الحكومية، وعبر نفوس الموظفين بثقة.

لا صوت إلا طنين الذباب المنتشر حول كاسات الشاي وقرقعة جرائد الموظفين علها تولد شيئا من الهواء. كل شئ في الغرفة يوحي بالقرف بدءاً من لون الدهان الداكن وقد تكحل بنقط سوداء من إفرازات الذباب بمناضد الموظفين المغبرة والمراوح المتدلية دوراتها وأقراص الدهان المنفقعة من رطوبة السقف حتى أشكال الموظفين لا توحي بالثقة، فالوساطة لعبت دوراً في توظيف أغلبهم ولأن المنطقة زراعية. فكل الدوائر تنشط لا إرادياً مقابل إنماء هويتهم بجمع صور الملكة زنوبيا ولكي يتيسر العمل في الدوائر وظف كل مسؤول أقربائه أو معارفه. كان ذلك أيام ما كانت المنطقة تنتج موسمين أساسيين لكن لنقص مستوى المياه في المنطقة اعتمدت الدولة على موسم واحد، مما أدى إلى خلق حالة من الملل خاصة أن النظام بمثابة صراط مستقيم يمشي عليه الكبير والصغير فأصبحت الدقيقة ساعة تمشي ببطئ كشيخ مسن يريد قطع جبل وأصبح عملهم مقصوراً على توقيع ما أو متابعة السرقات التي تمت أيام الترف في الجمعيات التابعة للدائرة، حتى المدير تساوى مع موظفيه في هذه الحالات التعيسة، وها هو يجوب الغرف علّه يجد ابتكاراً من أحد الموظفين لتوليد الهواء لكنه لا يجد سوى قرارة الضجر والملل في ملامح الموظفين. بدخوله الغرفة الأخيرة وما زال يلهث خاصة أنه قصير ربع القامة حزام بنطاله يكاد يصل إلى حلمات صدره الكثيف الشعر، وقد بلله العرق. صدمه المستخدم مستعجلاً وكأنه قطع مسافة مائة متر في الثانية.

- أستاذ... أستاذ... هاتف مستعجل من (.....)

التفت المدير بجذعة المربوع لقصر رقبته بلامبالاة:

- مالك يا هذا ؟ كأنك لم تستقبل في حياتك هاتفا من هذا النوع ؟.. أهو عزرائيل ؟. اتجه إلى مكتبه بثقة وكأنه لم يعط اعتباراً لما حدث، لكن دمه صعد في رأسه وخطواته باتت تسبق جسده المترهل كي يصل إلى مقبض الهاتف.

الموظفون بكسل مفرط بدؤوا يتغامزون مبتسمين للموقف ككل مرة. دقائق معدودة وإذ بالمستخدم يهرول ثانية إلى غرف الموظفين يطلبهم إلى اجتماع استثنائي مهم، ورجع دون أن يشبع تطفل الخائفين عن المكالمة أو سبب الاجتماع. اتجه الجميع إلى مكتب المدير وقد أنساهم الاستفسار الحرارة والملل المتسلط عليهم. مجموعة من الأسئلة والاستفسارات صادرة عن خوف وحيرة سيطرت على جميع حواسهم. بدخولهم المكتب بدأ سيلان الأسئلة ينصب على المدير.

- نعم أستاذ ماذا حصل ؟... يا ترى ما سبب الاجتماع يا أستاذ.. ؟

- أتوجد لجنة رقابة قادمة ؟.. أتوجد قرارت جديدة بإعادة زراعة المحصول الصيفي. ضجت الغرفة .. حالة غوغائية لا أحد يسمع ولا أحد يفهم . إلا أن المدير حسم الموقف وأنزل ضغط موظفيه المرتفع فوق المعدل وطرد هاجس الخوف والحيرة ببشارة سارة وهي أن الدائرة ستستقبل أول مرة لجنة رفيعة المستوى من المسؤولين لوضع حجر الأساس لسحب خط من مشروع الري إلى المنطقة، ويجب التحرك بسرعة لتدبير أمور الاستقبال، ودعوة الدوائر الرسمية، وجمع الفلاحين إلى مكان التدشين، ولم يتبق على قدوم الوفد إلا ساعتان.

عندئذ تنفس الخائفون والحائرون الصعداء، وبدؤوا بإشعال سجائرهم يأخذون منها أنفاساً بارتياح، وقد لفح جسدهم تيار هواء بارد من عمق ضمائرهم الباردة.

بدأ المدير بتوجيههم وتقسيم المهام عليهم كما تقتضي العادة وتوزيعهم، باستثناء اللجنة المالية لتثبت الرصيد المقرر صرفه للاستقبال خاصة مأدبة الغداء الفاخرة في المطعم الصيفي، وتم إقرار الرصيد بأربعة أصفار وعندما سحب المبلغ من الصندوق كالعادة ضاع صفر واحد فبقي المقرر صرفه ثلاثة أصفار.

في تلك الضجة، بدأت الهواتف تنهال على المدير من الدوائر الرسمية يستفسرون عن اللجنة القادمة والتأكيد على مراسيم الاستقبال. بدأت الألوان القاتمة تبدل وجه المدير وأحس أن البساط قد سحب من

تحت قدميه، فالمفروض فيه أنه المضيف وصاحب الدعوة والاستقبال، فمن بلّغ تلك الدوائر خاصة الحساسة منها وهو لا يستطيع تخطي الخطوط الحمراء إذا تدخلوا. لحظ الموجودون توتر المدير بانزعاجه من كل ما يحصل، والسخرية تدغدغ أدمغتهم غير المسؤولة لا سيما وأن الأمر أصبح واقعاً لا مفر منه، ويجب على المدير التنفيذ فقط وأصبح حلمه في خبر كان، فقد كان يحلم بمثل هذه المناسبة لكي يؤمن أساس بقائه مديراً لهذه الدائرة.

الحلم إنهار قبل اليقظة، والفرصة المتاحة له أصبحت غيمة سوداء. لم يبق للمدير إلا أن يرد على الهواتف ويجيب على الاستفسارات مجاملاً رغماً عنه، وقد أصبح كالبركان معداً للانفجار في أية لحظة، ولم يبقَ لقدوم الضيوف إلا ربع ساعة حسب الموعد المقرر. أصبح رأس المدير من الأفكار المتراكمة دون حل كالقربة، جيئة وذهاباً، وما زال في هاجسه. اقتحم موظفون ممن أتجهوا لجمع الفلاحين مكان التدشين خلوة المدير منقطعي الأنفاس.

- أستاذ ... يا أستاذ مصيبة.
- ماذا حصل ؟ وأية مصيبة حصلت ؟.
- إضراب يا أستاذ .. إضراب. لقد أضرب الفلاحون عن المجيء لاستقبال اللجنة، ولا يوجد من يرفع اللافتات والأعلام ولا من يصفق أو ينادي بالشعارات المعتادة سوى رئيس الجمعية التعاونية وأمين الصندوق، ومعهم عريضة لتبرئة ذمتهم من تهمة اختلاس وبيع مخصصات الفلاحين من بذار وسماد ولحسابهم بسعر السوق السوداء.

- ليذهب رئيس الجمعية إلى الجحيم وأمين الصندوق أيضاً قل لي ما سبب الإضراب ألا يكفينا مصائب اليوم ؟. سيقولون أن المدير لم يتحرك لجمع الفلاحين. هيا قل لي ما سبب إضرابهم ؟.

- يقولون لا نحتاج إلى سحب هذا الخط الذي سينتهي بعد أعوام طويلة طالما أن المياه أصلاً مستواها قد أنخفض ومُنع المحصول الصيفي، فلماذا هذا المشروع لا سيما وأن شبابنا قد رحلوا إلى الداخل لوجود حالة البطالة المفروضة علينا.

جلس المدير وراء طاولته ووضع رأسه بين يديه ليتمتم بصوت عال تارة وقد أرهقه التفكير، وتارة أخرى يضحك دون أن يجد معنى لذلك الضحك.

- إذاً لا يوجد مصفقون، ولا حاملو اللافتات ورئيس الجمعية يريد تبرئة ذمته وهو مذنب. من أين سنستورد الجماهير للوفد وقد علمناهم على ذلك الطقس وهم على وشك الوصول ؟.

في تلك الحالة الهستيرية للمدير وموظفيه، رن جرس الهاتف يرفع السماعة وأنظار الجالسين ترقب تحركاته وتصرفاته.

- ألو... أهلاً وسهلاً... ماذا... شكراً جزيلاً.

وتعالت ضحكات المدير وهي تدوي في الدائرة شبه الفارغة.

- خيراً أستاذ ؟ أضحكنا معك.

- ها ها ها لقد تأجل زيارة الوفد دون سبب إلى أشعار آخر.

وقف المدير ونظر في ساعته وما تزال بقايا الضحك تهز جسده المتكور.

- انتهى الدوام، واللعبة انتهت أيضاً. هيا نادوا بقية الموظفين لنذهب سوية نتناول طعام الغداء بدلاً عن الوفد وأقدامنا في المياه الباردة لعل تعب وحرارة اليوم يهجراننا ونحتفل سوية ببياض وجه دائرتنا، والمهم هو احتفالنا الكبير بمناسبة أول إضراب يحدث في منطقتنا.

حمشو أغا

تعبت عيون النهار وبدأ الليل زاحفاً يلتهم بقايا جدائل الشمس المبعثرة على امتداد عينيه الجاحظتين سيرحل الليل، ويأتي النهار يقف سيره ويعترف بأنه قد شاخ قبل أوانه، أو تتبادل أيام الأسبوع أمكنتها وأشهر السنة حلتها وهو غير آبه لم يعد يهمه شيء لا يتكلم طالما عيناه مفتوحتان هو يفكر ويخطط، أو أنه لا يفكر البتة بشيء يكفي أن تكون عليته الفضية المطعمة بالذهب ذكرى أيام عزه مليئة بالتبغ ودفاتر أوراق اللف متوترة يلف الواحدة تلو الأخرى، ويسحب من اللفافة ما باستطاعة قصباته أن تستنشق وتتحمل كل ذلك يكفيه أن يفكر بشيء أو لا يفكر أنه حمشو أغا عندما كانت تتوافد جموع الضيوف إلى مضافته بالإضافة إلى أهالي قريته قدوماً كيفياً وفي أغلب الأحيان رغماً عنهم ولاحظ غياب أحدهم عن المضافة العبارات الاعتيادية كانت تكرر صراخاً:

- لماذا فتحت هذه المضافة، لمن تدار القهوة المرة، لمن أصرف كل هذا المال ؟ أتريدون أن يقال عني أصبح أغا على النساء، وهذا صحيح فما الفرق بينكم وبين نسائكم ألا تشبعون من شم سراويلهن ؟.

كان القرويون معتادين على تلك النغمة الشجية خاصة في حال وجود ضيوف غرباء، وهو كان يتقصد ذلك ليثبت جبروته أمامهم كأغا. في ذلك اليوم، وقبل وفاته بساعة أو أكثر كان جالساً كعادته يفكر في حل لصراعه الداخلي وقد أسند ظهره إلى حائط المضافة المنسية وكأنه يترقب آخر غروب سيمر عليه، وإذ بإسماعيل المجنون يمر والأولاد يطاردونه صارخين.

- إسماعيل المجنون... إسماعيل المجنون.

وكأن الآغا لم يرى ذلك المشهد من قبل فطرد الأولاد عنه وطلب إليه الجلوس . قبل إسماعيل لقاء سيجارة لف، فأعطاه الآغا ما طلب وقبل أن يشعلها سأله بصوت عال:

- يا آغا ! أنت كنت آغا ولك شهود، وأنا أصبحت آغا وأنت تشهد على ذلك، فلمن سيبقى هذا الاسم الجليل ؟ ألديك المال أو هل أنت مجنون مثلي كما يقولون ؟. إذاً من سينعم بهذه الصفة ويبقى آغاً يترحم عليه الناس بعد مماته. وأشعل سيجارته بشغف احمرت عينا الآغا وامتلأت بالدموع، تمالك نفسه علها لا تنزل فلم يستطيع وضحك فجأة، ولأول مرة، وكأنه أكتشف حقيقة ما يبحث عنه منذ أمدٍ بعيد، فأسترسل في حديثه بسؤال آخر :

- يا آغا ! أنت تعرف كيف أصبحت آغا لكنك لم تذكر في يومٍ من الأيام كيف أصبحت أنت آغا ؟.

فوجئ حمشو آغا بذلك نظر إلى إسماعيل متعجباً متفرساً، وهو يكمل بقايا ضحكته التي بدأ بها.

- صحيح يا إسماعيل كيف أصبحت آغا ولماذا ؟

وكرر الآغا الجملة مرات عديدة، تركه إسماعيل مستهزئاً يضحك بصوت عالٍ متجهاً إلى جمع الأولاد في ساحة القرية وظل مبتسماً حتى غروب الشمس، لأنه وجد حلاً لمعادلة صراعه الذاتي مع واقعه الجديد بعد انتهاء مجده وسلطانه.

هذا ما حدث به (معمي) ساعد الآغا الأيمن لابن الآغا الهارب من المدينة ليحتمي بأنقاض والده من الملاحقة، فاتجه إلى المقبرة والحزن قد كساه، فانكفأ منكباً على قبر والده ينوح معاتباً كطفل حرم من حليب وحضن أمه يذرف الدموع وهي تتساقط تفتح فوهات صغيرة على التربة بازديادها، تتمخر فاتحة أخاديد قصيرة تمنى لو أنها تكبر وتطول فتجرفه علّه يرتاح من ثقل القيود التي قيد بها نفسه. اقترب (معمي) منه متعجباً وهو محتار: ماذا سيقول له ؟ أو هل يواسيه ويعرف جيداً أنه لا يبكي على ممات أبيه بل على ما فعله حتى وصل إلى هذه الأبواب المسدودة ؟، فقد أذنب ذنباً لا يغتفر لأمثاله في عصرٍ ارتدى ثوباً ليس له، حتى أنه لم يحافظ عليه بل حاول تمزيقه وتوسيخه ناسياً ماضي والده غير المشرف في كثير من تلك المجالات تحت شعار المصلحة الذاتية فوق كل اعتبار والصفة الوطنية منذ البداية كانت معدومة لدى العائلة، خاصة حمشو آغا الذي كان اليد الحديدية للفرنسيين أيام الانتداب، ولكل بداية نهاية والساعة الموعودة أتت. إنها القيامة لابن الآغا، حيث بحث عن حاشيته أصحاب النفوس الضعيفة الذين صوروا له البحر حليب أمه، لكنه نسي أن المحشر ينسي الأب ابنه، والأم وليدها، وكل شاة معلقة بكرعوبها: منهم من رفع الراية، ومنهم من فرَّ كالفئران أمثال ابن الآغا يبحثون عن جحر يأويهم. تبعثرت الكلمات من ذاكرة (معمي) وهو يراقب نهاية الظلم ويتذكر بأسف خدمته للآغا مقابل الخدمة

العظيمة التي قدمها الآغا له أيام سلطانه، لكن صوت ضميره كان أعلى أصبح طبلاً يخترق آذانه الصماء. ففي الأيام الأخيرة من حياة حمشو آغا عرف (معمي) حقيقة خدمة الآغا له وظل أسيرها حتى ساعة مماته، فقد بلغه أحد المسنين أن أخته التي قتلت على يده بتهمة الشرف كانت بريئة، بل كانت ضحية من ضحايا حمشو آغا، فلقد حاول الاعتداء عليها لكنها نهرته دفاعاً عن شرفها، ولكي ينتقم الآغا لكبريائه المطعون، فقد أشاع بين رجاله أنها متورطة مع شاب من خارج القرية، فأوصل الكثيرون ذلك لمسامع (معمي) الذي هاج بدوره دون تقصٍّ، وقتل أخته، فغطى الآغا على جريمته ليأسره طوال الدهر، لكن الشيء الذي كان يواسي (معمي) هو أن أخته قتلت على يده حرة طاهرة، ويعرف الكثيرون تلك الحقيقة، وليس (معمي) أول المخدوعين فحمشو آغا كان صارماً. ما يريد يجب أن يلبى خاصة في علاقاته مع النساء فقد تزوج شرعاً أكثر من أربع مرات ولعلم رجال القرية بطبائع الآغا مع النساء، فقد كان كل منهم يتأكد من صفة التشابه بين ما تلد زوجته وبين أولاد الآغا. تقدم (معمي) من ابن الآغا، وأعطاه آخر ما كان يملكه والده الآغا ولم يبع حتى الآن، لكن إسماعيل آغا المجنون كان أيضاً يراقب ما يحدث، وأسرع قبل (معمي) لابن الآغا بادره بسؤال كالعادة :

- أرأيت من بقي الآغا منا ؟ أنا بقيت الآغا قلت ذلك لأبيك فسخر مني، المهم من يضحك أخيراً. لكن أتعلم أن والدك الآغا لم يكن يعلمني كيف أصبح آغا على هؤلاء المساكين وهو لا يمت بصلة أو قرابة إليهم ؟. حاول (معمي) طرده لكنه لم يذهب وأزداد بكاء ابن الآغا أكثر من ذي قبل وتعالى أكثر وهو يحدث والده معاتباً.

- لماذا أصبحت آغا ؟ ... ولماذا أصبحنا أولادك ؟. لقد فشلنا في كل شيء حتى أننا نخجل إذا سأل أحدهم ابن من أنت ؟. ماذا سيفعل أولادي بي بعد أن أصبحت (...) مثلك دون قدْر أو قيمة ألم تفكر يوماً بغدر الزمان ؟. أولادك أصبحوا كحبات الحمص المنثور تائهين بعد أن باعوا حصصهم. حاشيتك أصبحوا أسياداً ونحن أصبحنا رعاعاً.

سمع (معمي) تلك الكلمات، وضحك بصوت عال حتى انتبه ابن الآغا لصوت ضحكاته، فأخرج الأمانة من جيبه وهي علبة الدخان الفضية المطعمة بالذهب ورماها على قبر الآغا وأدار ظهره مستقبلاً يوماً جديداً يتعالى صوت ضحكاته كلما ابتعد عن المقبرة وإسماعيل آغا يرافقه مفتخراً بأنه بقي الآغا.

المخاض

أكمل أعضاء جسده في الشهر الأول من قذفه، سارقاً فحولة والده منذ اللحظة الأولى، ليثبت تمرده على القدر بإرادة حرة قوية يحقق التمرد من الانعتاق الأول في رحم أمه.

أخرج قدميه من وعائه دون رأفة. دوى صراخ الملائكة والجان في أذنيه. اهتز العرش. تلبدت السماء بسواد الغيوم. برق الرعد وأمطرت السماء دماً داكناً، وزلزال يمزق أنسجة مخرجه. أحس بجوع لا يحتمل فالتهم أحشاء أمه ورحمها خرج بكامل جسده والدموع قد فقأت عيون منتظريه، فصرخوا حباً له وركعوا خشوعاً اتجه إلى الشمس واقفاً. احتموا بظله. مشى ومشى لتحقيق تحرر ظله من الانعتاق الأزلي.

بحر الهوى

ضجت المدينة الكبيرة بشوارعها الطويلة الملتوية المنحنية بخيّريها وأشرارها. تحركت بإيقاع سريع منتظم لتنفيذ الحكم على القرار بعدمية الاستقرار. فالفاجعة ستكون كبيرة جداً والضحية يافعة حنطاوية ميدية بجمالها ميتانيةٍ بعنادها وإصرارها، ذات قوام ممشوق مقبلة في مساحة اللاشعور على بحر الهوى بكل رقةٍ وشعورٍ دافئ مستسلمة لقناعة القدر المجمل. وذاك البحر ليس إلا مستنقعاً عفناً جامداً لا حياة فيه تابعٌ لتلك المدينة فالحكم يجب أن ينفذ بالقرار، لتتجه تلك الجميلة إلى مسارها الصحيح للوجد الأول، ولتنهار المدينة من بكرة أبيها، فقليل من خيبة أمل أفضل من السقوط في هاوية الخيبة والندامة.

أمل

إنه غيضٌ من فيض أمثاله. ثياب رثة وحذاء مرقع. لو أن للحذاء لساناً لصرخ بالعصيان على عدم لبسه. صاحب ذقن شعثاء يعمل منذ الصباح وحتى الغياب بصبر عله يؤمن لقمة عيشه بعيداً عن العامة أو جرح كرامته في لحظة حاجة. العام يمشي، اثنا عشر شهراً وهو يحارب طواحين الهواء المفروضة عليه لسد رمق عائلته باستثناء النصف المتبقي للشهر الأخير من السنة، فهو يحاول أن يشتري الغنى والعظمة يشتري حلماً عظيماً جميلاً يعيشه باستقرار وقتي دون فرض مع عائلته بنصف بطاقة يانصيب للجائزة الكبرى.

ينتهي الحلم ويدخل السنة الجديدة. دونكِ شوطاً قوياً واقعياً على أمل جديد وسنة جديدة.

لم يولد بعد

ضاقت به الدنيا وانجلى الدهر عنه. حاول كثيراً أن يصبح للحظة إنساناً يقول ما لا يفعل، ويفعل ما لا يملي عليه الضمير.

أراد أن يخرج من القوقعة الهروبية والاصطدام برجولته الضائعة، لكن مثاليته المعجونة ببراءة طفل حديث الولادة حالت دون ذلك.

حاول كثيراً وكثيراً، لكن الفاجعة كانت أعظم فحين بدأ المحاولة اكتشف أنه لم يولد بعد.

اجتماع مهم

عمَّ الفرح والسرور قلوب الدجاج والصيصان للقرار المتخذ من قبل مجلس الأعلى لمعشر الديكة ككل مرة يجدد هذا العقد المرهونة فيما بينهم والعمل على نيل حقوقهم من أنواع الحبوب والتجوال في حقول الأباء وإنهاء ظاهرة المهرجانات الدامية.

دخل الأعضاء القاعة منفوشي الريش تتضارب الأنظار بينهم تعالت الأصوات في القاعة وأزداد، والشعب في الخارج بانتظار القرارات تعالت الأصوات أكثر وبدأ الشتم والضرب كانت لحظات حاسمة وفتح باب المجلس خرج الأعضاء وقد بتر أعراف البعض والبعض الآخر مكسور الأجنحة والبعض منتوف الريش بخروج آخر ديك إلصاق البيان الختامي للاجتماع مكتوب عليه اتفقت الديكة على أن لا تتفق.

القيامة

لعظمة كاوا وقدوم الربيع بجماله الرباني أصدر القدر أن يتمخض في هذا اليوم النوروزي علاقة عشقٍ عنيفة ولدت بعد انقراض دام أكثر من ألف سنة.

تلاطمت أمواج قلبي روهلات ودلدار ليرسو القدر بهما إلى بر الأمان لكن واآسفاه العواصف القطبية المنشأ حالت دون ذلك فرسا بهما القدر إلى خلجان ابن العم. ضاق العالم بهما كعلبة كبريت فارغة. استرجع الاثنان مآسي أسلافهم مم وزين، فرهاد وشيرين. أتفقا أن يلحقا بنفس الموكب فركب دلدار قطار الموت بعد وداع طويل، وركبت روهلات قطار الانتظار ليلتقيا سويةٍ في محطة الحسرة الأبدية.

حالة

تكور على نفسه جاثياً بجانب جثة والده المتوفي وقلبه ينز ألماً لكثير من الاعتبارات المدفونة بداخله، وقد جالسه بعض ممن أصبحوا حثالة مثله في مجتمع يحدد قيمة الإنسان بحرارة جيبه.

لقد انتهى العزاء بداخله بعد مرور ساعة من وفاة والده، وهو الآن لا يفكر بشيء سوى بالجرذان التي قضمت كل الأوراق النقدية، وثقبت جيوب الكثيرين ويتعجب لغياب القطط المتشردة على الرغم من كثرتها. كيف لم تشم رائحة الجرذان وتوقف سيلانها في المنطقة ؟. لحظة وفاة والده، مرّ على جميع أصحابه وأقربائه وكل معارفه تجار الأقمشة علهم يؤمنون بضعة أمتار من القماش ليكفن مصيبته، ولترديد النداء بصوت جهوري من على منبر الجامع لجمع المصلين لأداء صلاة الجنازة، لكن الجرذان لم تبق شيئاً حتى أنها قضمت بقايا المشاعر الإنسانية وها هي ذي بدأت تساوم على جثة والده الضئيلة وهو يضحك مستسلماً.

تدخل

تعرى من كل شيء إلا من ورقة التوت. ففي ظل الهامش استغل التناحر الموجود بين طاقات أنمة الشعب وتاجر بالمحظور على أمثاله، تعمق بتجارته الدنيئة بغبطة نفسٍ كغبطة مراهق عند الاحتلام الليلي وأوجد من يصفق لتجارته حتى شارفت اللعبة على نهايتها. سدت الأبواب في وجهه، وتم الإعلان عن إفلاسه على جميع المستويات، فآثر أن يدغدغ العاطفة اليافعة عند المسنين عله يحيا من جديد بثوبٍ جديد فاتجه لكهلنا الأصم يشرح فحوى المبادئ والقيم، فاستوقفه الكهل بماهية وخلفية حديثه، وذكره أن

أذنيه قد صمتا من أجل تلك القيم، وبمباركة والده للشعبة الثانية. احتار كيف ينقذ نفسه ويحافظ على ماء وجهه من لسان الكهل إذا أثار الخفايا عندئذ عرف أنه تعرى حتى من ورقة التوت أيضاً.

اللحن

أراد أن يخلد الحياة بلحنٍ عذب على أوتار طنبورته الضائعة لكنه تذكر أن الحياة لم تعطه شيئاً من حلاوتها سوى العلقم. حتى حبيبته اغتصبت بأعضاء رجالاتها ، فهمَّ أن يخلد حبيبته بلحنه خشوعاً لآهاتها وخضوعاً لقطرات دم بكارتها التي امتصتها الذكرى.

إصرار

حزَّ الأسى في نفوسهم وهم الأخوة وأولاد العم أن يبقوا مشتتين مهانين ورؤوسهم مرفوعة تمنعهم الأختام والتواقيع ولمعان أنياب الذئاب من رؤية بعضهم بعضاً.
فأصروا بعض قرار حكيم أن ينكح الجميع طفلة ولدت حديثاً لتلد أسداً يهشم أنياب الذئاب ويفترس الروتين المصطنع لا سيما وأن إصرارهم فريد من نوعه رغم تعفنه في مسالك العقل.
بعد عقد القران لم يستطع أحد منهم مجامعة الطفلة لا طعناً في رجولتهم بل تبين أن الجميع محنيون وما زالت قضبانهم منتصبة.

أمنية

ألحت العجوز على ابنها بالزواج قبل أن تموت وترافقها حسرة رؤية الحفيد إلى الثرى لاسيما وقد أعطته أجمل أيام شبابها وسواد شعرها الداكن. تزوج الولد لتحقيق أمنية والدته ومرت الأشهر التسع حتى أنجبت الزوجة وليداً. ماتت العجوز قريرة العين وكبر الوليد يوماً بعد يوم. نظر الابن في المرآة، وإذ بشعره قد أبيض والتجاعيد فتحت أخاديد في وجه. ضحك كثيراً، فقد مر به قطار العمر دون أن ينتبه، وسيموت دون هدف أو أمنية. أصبح كالسيجارة مُجَّ منها الكثير ولم يبق منها سوى الرماد والعقب.

احتراق قصيدة

تفاعلت الكلمة وبكت مع الحدث واصطفت على خطوط الآه لتكوِّن هيكل القصيدة المأساوية للقرن العشرين. احتار الشاعر في أي بحر يصنف قصيدته الحرة: أفي البحور الصافية ؟ أم في البحور الممزوجة ؟ أم في البحور الآسي واللهب والدم ؟. مازال في حيرته حتى فوجئ باحتراق قصيدته واللهب بدأ يلتهم أصابعه حتى وصل إلى جسده المكبل، والعالم يسمع صراخه وأنينه بآذانٍ صماء.

غداً

أصبح جزءاً لا يتجزأ من الشرود كان ذلك نتاج عدم انصياعه للنخبة المسيرة في تلك القوقعة الصحراوية. قرر أخيراً أن يمحو ذاكرته من ماضيه العفن، بل يجب أن يقتل صفة النضال في ذلك الماضي ويمشي من محطة إلى أخرى. لكن هناك شيءٌ يناجيه من حين لآخر. منذ أيام طفولته ولم يستطع أن يقضي عليه، لأنه كان سراج لياليه الحالكة، فقد كان يلتهم نهاراته بكل ساعاتها المملة بشراهة في سبيل أن يلتقي بضالته وكان الغد المنتظر.

النهاية

ذاق مرارة الحياة والضياع في الدهاليز الأنا والذات. انكب على إنهاء روايته الذاتية. كانت أياماً معدودات لكنها مشحونة بتداعيات الأمس الصاخبة بالحزن. مرت الأيام والساعات. بدأ العد التنازلي للدقائق ثلاثة .. اثنان .. واحد. صرخ بسرور لا يوصف تعبيراً عن إنهاء ما بدأ. نزل إلى شوارع المدينة متباهياً بما أنجز كأي أديب معروف، دهش لنظرات وأصابع العامة المتجهة إليه. ازداد تباهياً بنفسه. اتجه إلى المكتبة القريبة لشراء بعض الجرائد حينئذ كانت دهشته أكبر. وجد روايته مطبوعة خالية من اسمه. تصفحها بإعجاب وجد نفسه بطلاً للرواية. عاد إلى البيت بسرعة ذاهلاً متفقداً مسودة روايته. وجد جميع كلماتها مسروقة فمات ككل مرة وكانت النهاية.

لوحة

بدأ الربيع يمنح الناس اخضراره منسوجاً باحمرار شقائق النعمان والبنفسج. اكتملت اللوحة الربيعية للرسم الإلهي حين قررت الأم الخروج مع النسوة لجمع ورق (الخبيز) ونبتة (الكعوب) تاركة وراءها طفلتها ميديا تلعب مع رفيقاتها لعبة الحياة الدائمة ليدب الرب الحياة في تلك اللوحة الإلهية.
انتصف نهار ذلك اليوم ولم يكتمل توقف عقرب الزمن بسبب هدير الطائرات، وتلاشت ألوان اللوحة من وابل النابالم والخردل. انفجرت القصبات في صدور المساكين إلا ميديا لم تمت. اختبأت في جمجمة والدها لتقول للعالم إن حقيقة الفاجعة معي، ولن تموت اللوحة مادام الربيع قادماً.

دعوة

اتجه إلى المعرض كأي مدعو ببطاقة دعوة رسمية. دخل إلى الصالة وقد تم الافتتاح وعلى أنغام سمفونية نينوى تجول كغيره يتمعن في اللوحات المعروضة. استوقفته إحدى اللوحات حيث لاحظ أن الفرشاة قد تحركت بطلاقة دون إرادة الرسام. لفتت انتباهه لوحة تشكيلية معلقة في زاويةٍ مسلط عليها قليل من الضوء. اقترب من اللوحة وشعر أن أكثر من فرشاة قد مسحت نفسها ببياض هذه اللوحة. ضحك من أعماقه وازدادت قهقهة ضحكاته. توجه إليه الرسام مستفسراً عن سبب ضحكه. تجمهر المدعوون حوله.
أجاب بأنه وجد نفسه في هذه اللوحة لكن المثير في ضحكه - قالها وهو يتابع الضحك - :
- انظر لقد أصبحنا لوحة تشكيلية معروضة في أكبر الصالات العالمية، لكن للأسف دون إطار والمؤسف أن المدعوين انظر أنهم يناقشون جميع اللوحات المعروضة إلا لوحتنا. لا أحد يقترب منا أو حتى يستفسر عن مضمومننا كلوحة دون إطار.

مذكرات (1)

تخوف من مرض النسيان وخيانة الذاكرة. حاول التقمص والرجوع إلى الطفولة المبتورة موقظاً بقايا المشاعر والأحاسيس في ثناياه. خطَّ صفحتين والثالثة من يوم ميلاده وتوالت الصفحات بصف الكلمات بسجيتها على الخطوط السوداء حتى سن العاشرة، وتوقف. تبين له أنه لم يعرف الفرح في السنوات العشرة إلا دقيقة واحدة، عندما رأى السعادة في عين والديه يوم ذهابه إلى المدرسة، وغصة الدراجة الهوائية بقيت معه.

عجزت الكلمات عن التعبير عن ولعه بامتلاك دراجة هوائية كسائر الأطفال.

(2)

شب على الحرمان بكل أبعاد الكلمة. كان يغتصب النجاح عنوة في كل سنة لتحقيق الطموح. من سراب الأيام التائهة تجلت الفرحة الثانية له بين الحلم واليقظة، عندما ولدت أمه ابنها الثاني. همَّ بشراء دراجة هوائية للرضيع قبل أن ينضج في سن الطفولة. بذلك يكون قد زرع جناحين لقصته وحسرته.

(3)

كساه الوقار ميزة الشيخوخة قبل الأوان. انتظر الفرحة الثالثة. مضت السنين تعيسة شاحبة دون التوقف في محطاته المعتادة.

أمل أن ينتفخ ذلك البطن، لكن جوع العقم كان أقوى من قدرته لتحقيق فرحته الأخيرة، فالتحف الكفن واحتضنه الثرى. في خضم شراسة زحف الحرمان إلى مكنونات جسده النحيل عاش لحظتين فقط رغم كهولة وتواطئ السنين مع القدر لقتل الأمل فيه.

مات دون التعرف على ذلك الأمل حتى أنه لم يكمل كتابة مذكراته.

الرسالة (1)

انبرت مصابيح الحزن بداخله، شرراً يلهث وراء تفكيره، قرر أن يتخطى قوقعة الضعف والوهن، فحمل قلمه وخط لأصحاب الشأن ما يلي :

تحية وبعد :

السيد المسؤول ! بعد الاعتذار أقدم لك استقالتي لظروف خاصة جداً جداً.

(2)

حاول أن يقطع شرايين نكران الذات والحرمان. حاول أن يصبح صاعقة تشق الحاجز الزمني المبني بينه وبينهم. حاول، وحاول أن يصبح ولو شرارة بدائية تحرق تلك الجذور المتسللة، لكن للأسف، الماضي كان زهرة اللوتس التي تجذبه بجمالها وعبقها.

(3)

الدكتور (...) !

دارت بي الدنيا. ما عدت أفرق بين رحيل النهار وإقبال الليل أصبحت كالأرض الجرداء، أحس عند هزيع الليل كالصادي أرتشف قليلاً من جمالها ودلالها.

تمد يدها لتصحبني معها، لكن الحاجز يحول دون ذلك. أشعر بمرارة الوحدة من خلال قناعتي بوحدانية الله، وأتضرع إليه أن يلهمك لإرجاعي لباطن عقلي، للحنين، أو دمجي في معادلةٍ من معادلات هذا الزمن الهلامي.

(4)

حبيبتي !

من قلبي النابض باسمك أهنئك بقدوم نوروز جديد وأهنئ نفسي بالرجوع إليك، واسمحي لي أن أخطف غداً قبلةً من وجنتيك بمناسبة اليوم الأول من العام الجديد **550** ق.م.

(5)

السادة الأعزاء !

قرأت جميع ردودكم، وأشكركم بصوتٍ عالٍ لالتفاتتكم النزيهة لكني قررت، وفي المساحة المتبقية على حافة حاجز المنسي بيني وبينكم، وبين وبين حبيبتي، أن يحتضنني الغيب في محيط الذكرى أو على جدران الزمن.

الضياع (1)

أثمر تكرار محاولاته للهجرة أخيراً، فباع الثمين ورهن أختيه وحول بيت والده إلى أطلال. حتى قطعة الأرض الوعرة التي بللت ظمأها من عرق ودم والديه بددها.

أصبح المستقبل مجهولاً بأمواجه العاتية، وأعاصيره القدرية للعائلة.

سافر بوداع سطحي مفرغ من الأحاسيس يستعمره الأنا ويشده السراب إلى المجهول. وطأت قدماه الأرض المقدسة، أوربا الساحرة. بدأ يبحث عن المال المرشوش في الشوارع والاوتسترادات. لم يجد ضالته إلا في الأزقة المظلمة والحانات عايش الصراصير والفئران حتى وصل إلى قمة غايته المرجوة.

(2)

الانحطاط كان البنية الأساسية لبناء الحلم، وقد اكتمل. أينعت بذرته بالهرمونات ودار دولاب الزمن حسب هواه، وبعد... ماذا هناك ؟ لا سيما وأن شيئاً ما يتحرك فيه يشظي دواخله المحنطة أهو الحنين ؟ أم الحرمان ؟ أم الندم ؟!.

تدارك نفسه قبل أن تنهار، فوقع صكاً لبناء قرية مصغره عن مدينته. مرت الأشهر وانتهت المدينة المصطنعة حتى أطلال بيت والده شيد كما أراد. لكن هل باستطاعته أن يولج الروح فيما صنع أو أن يعطيها الطعم والرائحة ؟.

(3)

كانت لنوروز طقوسٍ خاصة، وتدابير لذيذة تتَّخذ حتى يأتي يوم الحادي والعشرين من آذار، وكذلك عيدي الفطر والأضحى أيضاً. كل ذلك ولازال الحنين فيه يصرخ من ذلك البعد الزمني المنسي لتلك الطفولة الشرسة المتشبثة بجدران ذاكرته إلى واقعه الحي دون تصنع .. ينابيع الفانوس .. والبانوص والكبريت، على الرغم من موتها البطيء تناديه. سينما الأهرام والسوق الطويل وأحياء تلك المدينة بدءاً من (أحمد جرّى) حتى (عبدو نانو) فقد كوّنت الذات لكل فرد بحلوها ومرّها، وكان واحداً منهم لكنه قتل ذاته بيده، ومهما وقع من الصكوك فإنه لن يستطيع أن يمحو من ذاكرته كل ذلك، لكنه رافق الضياع دون رجعة.

ثلاث لحظات

لم يتصور أنه سيكون في يوم ما خميرة لتلك الذكريات الأليمة، حيث باتت الغيمة السوداء الداكنة جاهزةً ضمن رأسه، لتمطر داخل أقنية دماغه الهادئ الكثير من الشرود والصراع السابق، وتسترسل بتلذذ لحظات ضعفه التي استطاع بعد معاناةٍ مريرة قيدها بإحكام، ورمي مفاتيح القيد في بحر النسيان. هذا ما كان يظنه حتى قبل تلك اللحظة اللعينة، لكن إرادة السماء والمصادفة ألزمتاه على اللقاء بها في لحظة غير متوقعة، وهي نفسها تلك اللحظة حين التقى بها أول مرة في نوروز تتجول مع بعض معارفها تعرض جمالها ومفاتنها كغيرها من فتيات جيلها لصاحب النصيب، بتوجه فطري أنثوي غير مقصود بشكله العلني.

كانت تلك هي اللحظة الأول، وكما نزل جبريل على محمد (ص) يملي عليه (اقرأ .. اقرأ .. اقرأ باسم ربك) ومحمد (ص) كالمحموم يرد عليه (ما أنا بقارئ) حتى فكت عقدة لسانه وأكمل الآية الكريمة.

هذه المرة نزلت ملائكة الرحمة والمحبة على (ليلاف) و(دلدار) لتثبيت علاقة روحية نبيلة بينهما، وبعد جهد جهيد، تكلل تعب دلدار في ملاحقتها بنهاية سعيدة لدلالها الدافئ ومناوراتها المتغنجة حتى يغرق في عذوبة مياه هواها، ويرتمي على شطآن عينيها القاتلتين بسهام الحب والوجد، وكان قتيلاً منذ تلك اللحظة، إلا أن الجشع كان لهما بالمرصاد وأتت اللحظة الثانية حيث استعمر الوهن مملكة إرادته، وتسلسل الصدأ إلى أساس بنيانه، فماذا سيفعل أمام الطوفان القادم، وسفينته لم تعد تتحمل إلا حمل نملة ؟.

فبيعت عذريتها، وشُيّد مكان ذلك الكوخ بناءً بالاسمنت المسلح مجبولاً بدم بكارتها، وكما تقتضي العادة، زفت ليلاف إلى عريسها في موكب ملكي مفرغ المضمون. بينما كان دلدار هائماً على وجهه في صحراء اليأس ، أشبه ما يكون بدراويش بغداد. وهاهي اللحظة الثالثة تصادفه رغماً عنه، وليلاف أمامه تبدو كأنها حبلى .. نعم إنها حبلى. لكن كيف ؟ وقد مرّ على زواجها ثلاث سنوات، ولازال عريسها يحلم بليلة زفافه، فقد أدركه العجز وحل الجفاف بمنابع فحولته، حتى أيس منه شيوخ الطريقة وسكان المزارات المباركة، علَّ قضيبه ينتصب ولو لدقيقة واحدة يحقق من خلالها حلمه، لا سيما وقد عقدوا له كما يشاع، في ليلة زفافه، ولا يعلم الكثير بهذه القصة إلا صديق حميم له، وعند أول خلاف نشب بينهما بسبب المال، أوصل ذلك الصديق تفاصيل عجز صديقه إلى دلدار لا حباً فيه بل انتقاماً من الآخر.

فيمن تزوجت ليلاف وأصبحت حبلى ؟ مجموعة من الأسئلة والاستفسارات تحاك في ذهن دلدار ، وقد نسي مأساته السابقة معها، وبعثَّر تلك الغيمة السوداء إلى غير رجعة، ولازالت ليلاف أمامه والدمع يتراقص في عينيها، والإصرار على الانتقام يشعُّ بوهج صارخ.

ممن انتقمت ؟ ولمن ؟ ولماذا ؟.

مرَّ دلدار من أمامها، وهو يضحك بكل جوارحه، وقد تأكَّد كل التأكيد أنها حبلى، لكن ليس منه.

موعد مهم

بانهمار دموع (زيني) الجميلة، كانت الأرض تزداد ملوحةً وابتلالاً، والأرض تطلب الرحمة نعال آلاف المتراكضين نحو الأسلاك الشائكة، ليحتضنوا بقايا الحنين المتأجج في نفوسهم وبعضاً من أشلاء الذكرى. في هذا اليوم بشَّر الصباح العباد بتحسن الطقس وتوقف المطر، الذي دام هطوله ساعات طويلة، منذ منتصف الليلة الماضية حتى بزوغ فجر هذا اليوم غير العادي للجموع المتوافدة، على الرغم من أن الشتاء مرَّ قاحلاً كالسنة الماضية، وبقيت الأرض ظمأى في حالة مخاض رافضة ولادة قسرية بما حبلت به طوال أشهر ما قبل الشتاء. لكن الخالق منَّ عليهم بالخير، والربيع بدأ يحبو إليهم، والآن هذا اليوم غير العادي تمنوا توقف المطر دون الاكتراث بالتضرر الذي سينجم جراء ذلك ، خاصةً لذوي الحاجة إلى كسرة خبز طرية. تحققت الأمنية، واليوم المنتظر أتى بفارغ الصبر، وزيني واحدة ممن انتظروا هذا اليوم، وهاقد أتت حاملة الشوك والحسرة، التوقع والمفاجأة، الفرح والبكاء وبعض الهدايا إلى عمها الوحي، وراء تلك الحدود، حيث تفصل بينهما السكة الحديدية والألغام والحرس والأسلاك الشائكة. أخذت زيني مكانها في الصف الأول بعد أن بحثت بنظرها الحاد متفحصةً جميع الوجوه الباكية والضاحكة. تتشد ضالتها ضمن معمة الدراما القائمة على جانبي الحدود، لكن دون جدوى، والشوق ينهش فؤادها الفتي، والوقت يمرُّ لا سيما أن الكثيرين وجدوا أقاربهم، ومعارفهم، فلجأت إلى كيد النساء واستغلت أنوثتها الباهرة مع أحد الفتيان في الجهة الأخرى، بعد أن كتبت له اسم عمها وعنوان إقامته، وعن تواجدها في هذه الجهة، وأرسلت الورقة عبر أحد الحرس المتواجدين في الجانب الآخر. وقد أوصل الحارس الورقة إلى ذاك الشاب ليبحث من أجل عينيها السوداوتين عن عمها. زيني متأكدة من وجود عمها، فقد أكد لهم عن قدومه وها هي تراقب تحركات الشاب وتبحر بنظرها بين المتراصين في الجانب الآخر، علها تكحل عينيها برؤية عمها الوحيد، فقد زرع والدها تلك المحبة وذاك الشوق في نفسها منذ نعومة أظفارها ، حيث كان يحكي الكثير عنه، عندما كانا سوية في كنف والديهما ضمن العشيرة إضافة إلى سرد دقيق عن مواصفاته وطبائعه ومزايا شكله الخارجي ، وبعض مواقفه الجريئة والرجولية في كثير من الأحداث التي وقعت في قريتهم قبل سنوات كثيرة. ومنذ ذلك التاريخ لم يرَ الأخوان بعضهما بعضاً حتى ظنَّ كل منهما أن الآخر قد توفي. لكن بفضل أحد معارف والد زيني الذي كان يعمل في التجارة بين الدولتين أكَّد أن أخاه حي يرزق، فتمت المراسلات والاتصالات الهاتفية بينهم وتم تبادل أشرطة الكاسيت والصور الفوتوغرافية، واليوم سيتم اللقاء بعد كل تلك السنين وتراكم تلال من الحزن والألم والمعاتابات الدافئة . لكل ذلك استعجلت زيني بالمجيء قبل والديها وإخوانها لتمتحن ذاكرتها وحدسها في معرفة عمها.

مازالت زيني تنتظر وعيناها ترفضان أن ترفا والاشتياق يزداد توهجاً في فؤاده البالغ من العمر سبعة عشرة ربيعاً، بعد اختفاء وجيز وفى الشاب بوعده لها ، وها هو يصطحب عجوزاً ويناديها : هذا من تسألين عنه. صرخت زيني بصوت مثقل بالبكاء : عماه ! أنا زيني ابنة أخيك. فرفع العجوز يده يحييها. انفجر نبع الدم من مآقيها وامتزج بسواد كحل عينيها. تصرخ من قعر أعماقها عن صحته وتؤكد له قدوم والدها. لكن الضجيج والصراخ والنحيب المتبادل كان يقتل صوتها . تمنت لو أن الجميع يصمت لدقيقة واحدة لتوصل صوتها إلى عمها وتسمع صوته لا سيما وأن الأسلاك تمنعهما من الاحتضان، وقد سال دمها من جراء هزها المتواصل لتلك الأسلاك وهيجانها علها تقتلع فتهرول إلى حضن عمها . في خضم ذلك تحرك العجوز من مكانه مخرجاً جسده النحيل من بين الحشد المصطف وراءه وكل من المصطفين يستغل تحرك الآخر من مكانه ليتقرب ببضع سنتيمرات من قريبه في الجانب الآخر. نادته زيني : لا تذهب .. لا تذهب .. فوالدي قادم. أعرف أنك متعب ، فانتظر قليلاً وسأحضره لك خلال ثوان . أرجوك ابقَ قليلاً . إلا أنه لا حياة لمن تنادي، فالضجيج يصم الأذان . أدار العجوز الذي لم يسمع شيئاً ظهره

واختفى لبرهة ، أما زيني فقد امتزج في داخلها الحيرة والمفاجأة . أتترك مكانها وتذهب لإخبار والدها أم تبقى علَّ العم يرجع قريباً ؟. بقيت مترقبة بولع ظهوره أو حتى بيان والدها أو أحد إخوانها تبشرهم برؤية العم . انتهت البرهة ورجع العجوز يدسُّ جسمه بين الجمع الكثيف معطياً الحارس ورقة يرسلها إلى زيني حيث عاد الابتهاج إليها حين رأته وأكثر حين أخذت الورقة من الحارس وفتحتها بكل الشوق والحنين الممتلئ في فؤادها ودموع الفرح في انسياب منقطع النظير لتقرأ ما كتبه العم وماذا يطلب منها ؟ وإذ بها تتفاجأ من قراءتها لتلك الكلمات المكتوبة حيث يقول : لقد عرفتك . أنت ابنة ابنتي (...) رجائي منك إذا زرت قبرها بلغيها أن والدك قد سامحك في دنياه وآخرته ولا تنقطعي عن مراسلتي أو ملاقاتي كل عيد في هذا المكان . فأنت الشيء الوحيد المتبقي من المرحومة.

الاضطراب والحيرة سيطرا على عقل زيني . نظرت إلى العجوز فلم تجده في مكانه. إنه لم يحتمل أكثر من ذلك . ازداد بكاؤها أكثر من ذي قبل . لقد خانها حدسها، وظنت خطأً أن ذاك العجوز عمها لكنها عرفت ابنة العجوز ، فقد كانت تسكن في حيهم وتوفيت في السنة الماضية من جراء المرض وسوء معاملة زوجها وإهماله لها بعد أن تزوج عليها لأنها لم تنجب له إلا بنتاً واحدة وهي الآن تخدم زوجة الأب وأولاده الخمسة. في خضم ذلك نسيت زيني عمها وبحثت عن العجوز كثيراً لكنها لم تجده ، ولم تستيقظ من تلك الهستيريا غير المتوقعة إلا وأحدهم يشدها من كتفها وقد كان والدها ليخبرها أن عمها يسأل عنها ويريد أن يراها هناك حيث يقف إخوانها ووالدتها ولم يبقَ إلا القليل من انتهاء مدة المقابلة المقررة . استأنت زيني والدها أن تلحق بعد برهة، فأخت القلم وكتبت للعجوز تقول :

- يا جدي سأنفذ وصيتك وسأنتظرك كما أمرت كل عيد في هذا المكان. التوقيع: ابنة ابنتك (كولي)

.

أعطت الورقة للحارس الذي أعطاها بدوره لذاك الشاب المتأمل بجمال زيني، حيث راح يصطاد أنوثتها بعينيه منتظراً إيماءةً منها لتنفيذ أي طلب ، فأخذ الورقة من الحارس ليوصلها للعجوز. خرجت زيني من بين الحشد متجهة إلى أهلها تضحك من سخرية الأقدار وصغر هذا العالم رغم كبره. اتجهت إلى عمها المنتظر في الجانب الآخر لكنها أفرغت كل ما لديها من شوق وعبرات وحنين للعجوز الذي يحتاج إلى كل ذلك أكثر من عمها وسيبقى حياً على أمل كلمات زيني ووعدها له إلى العيد القادم لأنها الدواء الشافي لشيخوخته القاسية.